

التغيير الاجتماعي والدور المطلوب



«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْزَعَهَا عَلَيْ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (الأنفال / 53).

(لَهُ مُعَقَّرَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوزَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدٍّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد / 11).

الحياة حركة وانتقال.. والعالم بأسره في حركة دؤوبة.. سواء المادّي منه أو الإنساني.. فلا شيء يعرف الثبات والاستقرار غير قوانين الحركة والتغيير التي تتحرك وفقها المادّة والنفس والفكر والمجتمع..

وإنّ من أهم قضايا المجتمع وموضوعات علم الاجتماع هو التغيير الاجتماعي.. وإنّ المهنة الأساسية للرسالات الإلهية هي إحداث التغيير والإصلاح في الحياة البشرية، والانتقال بها من وضع إلى وضع أرقى وأفضل، وقد عبّر القرآن عن التغيير بتعابير مختلفة.. فمرة بالكلمة الموضوعية للتغيير، كما في الآيتين الواردتين أعلاه، اللتين تحدثنا عن منطلق التغيير، وهي النفس الإنسانية.. ومرة يتحدث عن التغيير تحت عنوان الإصلاح.. وثالثة تحت عنوان الإخراج من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، وتارة بالإنباء والتوبة والرجوع.. إلخ.

وذلك يعكس لنا حقيقة التغيير المطلوبة في القرآن بأنّها الحركة والانتقال نحو الأفضل.. غير أنّ المسار التاريخي والاجتماعي للفرد والمجتمع يتحرك في جانبه الإنساني في الاتجاهين معاً.. فالتأريخ والحضارات والشعوب والأُمم والأفراد تتحرك نحو الرقي والتكامل، كما تتحرك نحو السقوط والانهيال في جانبها الإنساني.. فبأتي قانون الاستخلاف والاستبدال والتداول..

وفي حديث القرآن عن إصلاح البشرية الذي هو هدف التغيير، وإخراجها من الوضع السيئ إلى الوضع الأفضل والأرقى - إخراجها من الظلمات إلى النور - نقرأ: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ بِبَيْدَتْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَ لِفَكْمِكُمْ إِيَّايَ مَا أَنزَلْنَاكُمْ مِنْ غَدَابَةٍ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود/ 88).

(الر كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْعَزَّيْزُ الْحَمِيدُ) (إبراهيم/ 1).

(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة/ 39).

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمَشَرُوا عِيدَادِي) (الزمر/ 17).

كما ويتحدث القرآن عن السقوط والانهيال والتغيير نحو الأسوأ فيقول: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة/ 257).

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف/ 85).

(إِنَّ السَّادِّينَ ارْتَدُّوا عَلَيَّ أَدُوِّ بَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) (محمد/ 25).

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدُوِّ بَارِكُمْ فَيَتَذَلَّلُوا خَاسِرِينَ) (المائدة/ 21).

ويتحدث القرآن عن حركة التغيير في المجتمعات وعن سقوط الأمم والحضارات وفق قوانين التغيير (سنن []). . ويعرض عينات كثيرة ومتكررة ليوفر للإنسان قراءة محسوسة لتأريخ الإنسان.. نقرأ من هذه التجارب قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (غافر/ 82-83).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (محمد/ 10).

(هَٰذَا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ لِيَتَذَكَّرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِن نَّمَّا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنزَلْنَاهُ الْفُتُورَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد/ 38).

(إِنَّ يَمْسَسُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُذِرْ أَوْلَاهَا بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران/ 140).

وكما قرأنا الآيتين الكريمتين في بداية هذا الموضوع أن القرآن يعتبر النفس الإنسانية هي منطلق التغيير.. فما لم يتغير المحتوى الفكري والنفسي لدى الإنسان لا يحدث التغيير الاجتماعي، وهذا التغيير الفكري والنفسي نحو الأفضل أو نحو التراجع والارتداد، هو نتاج عوامل عديدة..

نذكر أهمها بإيجاز، فهي:

1- الرسائل الإلهية: ساهمت الرسائل الإلهية في إحداث عملية التغيير الفكري والنفسي بشكل مشروع تغييرى متكامل.. فقد حمل الأنبياء الرسائل الإلهية لإنقاذ الإنسان والتسامي بمساره ونمط حياته، وخاضوا ملاحم التغيير الفكري والنفسي والسلوكي، وأحدثوا نقلات نوعية متقدمة، وهزات كبرى في تأريخ الإنسان.. وكأوضح الأمثلة على ذلك الرسالة الإسلامية.. فتأريخ المسلمين على امتداد وجودهم، وتأثيره التغييرى الكبير في العالم هو نتاج التغيير الفكري والروحي الذي أحدثه الإسلام..

إن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالله، واليوم الآخر، ومكارم الأخلاق، والقوانين والعبادات والنظم التي بشروا بها، قد أحدثت تغييراً كبيراً، وما زالت تؤثر كأقوى عامل في حركة الإنسان ونظام حياته وتفكيره.. وهكذا سلك الفكر والعقيدة وما أحدثته من تحوّل روحي ونفسي، أحدثت التغيير في التكوين الفردى والاجتماعى والنظم السياسية والاقتصادية.. إلخ.

2- الدافع الغريزى: يحمل الإنسان في أعماق تكوينه دوافع ونوازع غريزية، كغريزة (الأنثى) حب الذات، وغريزة التملك، وغريزة الجنس، وغريزة الاجتماع، وغريزة حب التسلط على الآخرين.. إلخ. وعندما يطلق العنان لهذه الغرائز بلا حدود، أو تعبير عن نفسها بطريقة عدوانية، أو مرضية شاذة، فعندئذ تتجه حياة الفرد والجماعة باتجاه معين في مجال السياسة والعقيدة والاقتصاد والعلاقات الجنسية والسلوك الاجتماعى، والوضع النفسى للفرد، وتصبح المنفعة الفردية واللذة الحسية هي مقياس السلوك الفردى والاجتماعى.. وعندما تضبط وتوجه توجيهاً صحياً منظماً، تتجه حياة الفرد والجماعة في مجالاتها كافة اتجاهات إيجابية وبناءة..

وهذا الاختلاف يأتي نتاجاً للوعي والإرادة.. وبذا يحدث التغيير، ويتصرف محتوى الذات الداخلى للإنسان بعملية التغيير.. فحين تكون سلوكيته غريزية بهيمية تصنع وضعاً اجتماعياً على هذه

الشاكلة.. لذا يصفه القرآن بقوله: (إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان/ 44).

وحيث يتجه المجتمع اتجاهاً عقلياً وعلمياً تنجه أوضاع المجتمع نحو نمط حياتي آخر، يصفه القرآن بقوله: (إِنَّ السَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) (البينة/ 7).

3- حركة الفكر البشري الذاتية، وما ينتج التفكير الإنساني من فهم وتصورات، متأثراً بدوافع عديدة، كصورة الواقع المعاش، أو التأثير التاريخي، أو الأوضاع النفسية المرضية، أو الاستنتاج الخاطئ.. إنّه لمن الواضح إنّ الفعل الإنساني في المجالين الفردي والاجتماعي، هو نتاج دوافع الغريزة وحركة العقل والإرادة.. ولو شئنا تحليل المركبة الاجتماعية بما فيها من أوضاع الاقتصاد والسياسة وسلوك فردي واجتماعي، ومفاهيم وثقافة حضارية بشتى اتجاهاتها.. لو شئنا تحليلها لرأيناها في معظمها نتاجاً لغريزة العقل الإنساني.. وأنّ مسار التحوّل والتغيير نحو الرقي والتكامل، أو نحو السقوط والانحطام هو نتاج تفكير الإنسان وردود فعله النفسية تجاه الواقع المحيط به.

4- ظروف البيئة الطبيعية: تؤكد التجارب التاريخية ودراسات علم النفس والاجتماع والحضارة أنّ الهزات التي تصيب الفرد والجماعة، سواء الطبيعية منها، كالفيضانات والجفاف أو الخصب، أو الاجتماعية كالحروب والأمراض والاضطهاد.. إلخ، تحدث تغييراً وتأثيراً في أوضاع الفرد والجماعة.. بالاتجاهين السلبي أو الإيجابي..

ويتحدّث القرآن عن أثر الهزات والحوادث والكوارث الطبيعية في التحول والتغيير الاجتماعي فيقول: (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْمُصَلِحُونَ وَمِنْهُمْ مَّنْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَا لَهُمُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف/ 168).

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَمِهِ مِنَ الذَّمَرَاتِ لَعَلَّاهُمْ يَذُكَّرُونَ) (الأعراف/ 130).

(طَهَّرَ الْفَسَادُ فِي الْبَيْرِ وَالْبِحَارِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذَيَّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم/ 41).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَايَئْتَهُ فِيهِمْ آلَافٌ سِنَةٌ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (العنكبوت/ 14).

5- البيئة الاجتماعية وعلاقتها بالتفاعلات الفكرية والنفسية: ليس الإنسان الفرد وحدة فكرية ونفسية منفصلة، لا يتأثر ولا يؤثر فيما حوله من الأوضاع الاجتماعية.. بل إن ما يحمله من أفكار وسلوك وأوضاع نفسية هو نتاج لظروف وأوضاع البيئة الأسرية والاجتماعية التي ينشأ فيها.. فالإنسان يولد كما يقال صفحة بيضاء، وتتشكل شخصيته الفكرية والنفسية من خلال ما يتلقاه من البيئة المحيطة به.. والحديث النبوي الشريف يوضح هذه الحقيقة بقوله:

(كل مولود يولد على الفطرة إن ما أبواه يهودانه وينصرانه).

غير أن الإنسان قادر بإرادته وتفكيره على أن يعيد تشكيل عقله ووضعه النفسي، وينتقل من وضع إلى وضع آخر.. وإذاً فالبيئة التي يعيش فيها الإنسان لها تأثيرها الكبير في التغيير.

6- الاقناع الفكري: ويشكّل الاقناع الفكري عن طريق الدعوة والإعلام وإيضاح الحقائق، أو عن طريق الخداع والتضليل والاستغلال أسلوباً هاماً من أساليب التغيير..

وانطلاقاً من هذا الأساس بعث النبي والمرسلين، وأوجب الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. لذا يؤكد القرآن على هذه الحقيقة بقوله: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَالِيًا بَصِيرَةً أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُئِلَ عَنَّا لَنُؤْمِنَهُ وَنُؤْمِنَهُ مِنَّا وَمَنْ اتَّبَعَنَا مِنَّا مِن الْإِسْرَائِيلِيِّينَ) (يوسف/ 108).

(وَلَتَتَّكِنَنَّ مِنَ الْكُفْرِ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 104). ▶